

في الجنوب

محمود درويش

حين كانت دلال تقطع الساحل الفلسطيني في اتجاه القلب، لم يكن مهماً أن يسأل أحد: من أين جاءت؟ من البحر أو الهواء، من حطام تل الزعتر أم من الحصار القادم. فالجهات كلها تبدأ من جوهر واحد: من القضية الفلسطينية.

ولم تكن رحلة دلال هي الأولى، ولن تكون الأخيرة. ليكن ذلك واضحاً كيوم السبت الشهير. فليس لدم دلال هدنة، ولا قوات مراقبة أو حدود ولا موقع ثابت، فلماذا يقطع العالم أنفاسه في انتظار الرد؟ لماذا يصفق إعجاباً بالانتقام "الإسرائيلي" القادم؟

لم تتوقف الحرب "الإسرائيلية" ضدّ دلال حين كانت جنيناً، أو ضدّ ما تحمله دلال وإخوتها وأخواتها من أجنّة. فهم ليسوا أكثر من بيضة أو لا وجود لهم... لا وجود لأسمائهم. والحرب عليهم حرب إبادة منذ وطئ المهاجرون الأوائل أرض فلسطين، منذ احتلوا غرفة دلال وناموا في سريرها. ومنذ ذبحوها للمرة الأولى في دير ياسين طردوا الحرام عن قانون الصراع مع الفلسطينيين، لأن الفلسطينيين خارج القانون!

من حقّ دلال ومن واجبها أن تسير على ساحل وطنها، لا لتزوّط أحداً وإنما لتحدد مكان قلبها. ومن طبيعة العدو الصهيوني أن يكرّر محاولات الإبادة، فالحرب بيننا دائمة، ودائرة الصراع مفتوحة لا يغلقها العجز الطافي على السطح، ولا اتفاقيات الهدنة مع الآخرين، ولا إتقان لغة التخاطب الجميلة مع الضمير الغربي المثقل بذكريات الصليبيين. سلام دلال وحده هو الذي ينقل الصراع إلى مستوى آخر.

لذلك، لم يزعج "الإسرائيليون" بالتهمة الحربية في أرض الجنوب لينتقموا من رحلة دلال الأخيرة، بل ليوصلوا حرب الإبادة التي أعلنها وجودهم على الشعب الفلسطيني وثورته، وليواصلوا غزوهم التقليدي، وابتكار تعدد لنموذجهم العنصري، وليعيدوا تنظيم شؤون العالم العربي الداخلية على هواهم، ووفق ما يتطلبه فهمهم الخاص للأمن.

إن الأمن الصهيوني لا يتأسس على خطوط وقف إطلاق النار مع البلدان العربية، إنه يتأسس، جوهرياً، على علاقة معقدة وغير منظورة مع كيفية بناء الداخل العربي التي تتفكك فيها قدرة الجماهير على المبادرة، وترتبط مصلحة ما

يمثله الحاكم بالقوى المعادية، للثورة. ويتأسس، جوهرياً، على تفرغ الوعي القومي من الخطر الواحد المشترك، لتصير النجاة الإقليمية من أعباء الصراع هي الطابع المميز لمشهد العالم العربي في هذه اللحظة، ويتأسس، جوهرياً، على تعليق أحلام المسؤولين بحلّ المسألة الوطنية على قدرات خارجة عن أرض الصراع، فتصير الإرادة الدولية مصداً، لا مرآة، لتوازن القوى على أرض المعركة. وهكذا يرتاح الأمن الصهيوني رسمياً ويتمدد، وهكذا تجد قوى إدارة الصراع العربية نفسها أسيرة التعابير المتبدّلة على وجه الرئيس الأمريكي العاجز عن تدجين الذئب "الإسرائيلي" المتمرد. فهل هذه هي المسألة حقاً؟

سيواصل الفكر السياسي العربي إرهاب نفسه في البحث عن الخلية المتورّمة في جسد الأمة وعلى الأرض، ستواصل دلال، الرمز والتجسيد، رحلتها على الساحل الفلسطيني. وسيواصل العدو الصهيوني حرب الإبادة على الشعب الفلسطيني باعتباره نقيضه التاريخي، وباعتبار ثورته الاسم الحركي لنهج الأمة في تطبيق طموحها إلى التغيير.

وفي حرب الجنوب، التي تفوّق فيها مقاتلون على العُقد والأوهام التي حكمت مسيرة الحروب العربية "الإسرائيلية"، تأسست من جديد مقومات إرساء الأمن العربي، وتبلورت طريقة تمزيق الأمن "الإسرائيلي". لقد دلّ الفدائي، المدجج بالسلاح الخفيف والتصميم على القتال الطويل المتحرك، على مصادر لا تحصى من قابلية العدو للهزيمة في هذا النوع من القتال، بشكل جعل الناس تحلم بمعركة أطول، وعلى جبهات أوسع، تشترك فيها طاقات الأمة التي لا حدود لها لو أتيح لها الحق في ممارسة دورها في الحرب.

لقد فتحت صدور الفدائيين في الجنوب بوابات المستقبل العربي، وأحكمت الحصار على عقلية مساده الصهيونية من جهة، وعلى عقدة الخوف العربية من جهة أخرى.

ومع ذلك، فقد دلّت حرب الجنوب على مدى العجز الذي خلفته مسيرة التسوية، على الطريقة الأمريكية، في صفوف القوى المكلفة بالمضي في إدارة الصراع. فما زال فراغ الطاقات، الناجم عن خروج أكبر دولة عربية من المعركة، ممراً لحرية السلوك "الإسرائيلي"، الذي استطاع دفع حوالي ربع قواته النظامية في الجسد العربي، بحثاً عن القلب الفلسطيني، دون أن يشعر بخطر المواجهة الشاملة التي ربما كان يناديها لتحويل نهج الحاكم المصري إلى حتمية. فهل سيتحرر العرب من جاذبية التسوية الأمريكية التي عكست حرب الجنوب إحدى نتائجها التدميرية من ناحية، وطريقة التصدي لها من ناحية ثانية؟

وهل سيواصلون التضحية بأنهم القومي من أجل أمن التسوية الوهمية؟

وما هو البديل؟ تسوية أخرى؟ هنا يأخذ السؤال صيغة مختلفة: هل يستطيع العرب، في وضعهم الراهن، أن يفرضوا تسوية عادلة تتحقق فيها شروط الحد الأدنى المتمثلة بالانسحاب "الإسرائيلي" من الأراضي العربية المحتلة وضمان حقوق الشعب الفلسطيني؟ إن أمريكا "عاجزة" عن إنقاذ أقصى حدود التنازل بثمن زهيد

هو "التنازل" "الإسرائيلي" عن أرض عربية، أو هي عاجزة عن تحقيق الانسجام بين الدور "الإسرائيلي" والدور العربي المتزاحمين على فاعلية تأمين مصالحها.

صحيح أن لأمريكا مصالح عربية لا تفرط بها، ولكن الصحيح أيضاً أن القوة "الإسرائيلية" ما زالت هي الأداة لوقاية هذه المصالح، وهي التي دفعت بعض العرب إلى الحزن الأميركي بما رافق هذا الاندفاع من التخلي عن مهام حركة التحرر العربية والتغيرات السلبية في بنيتها.

إن التسوية الوحيدة المعروضة في السوق الآن هي التسوية "الإسرائيلية" المعدلة بطريقة أمريكية. وقد أعلنت عن جوهرها في حرب الجنوب، التي وضعت فيها "إسرائيل" طاقتها القصوى لإبادة الثورة الفلسطينية. وقد دلت الكفاءة التي خاض فيها الفدائيون الحرب الخامسة على أن الثورة الفلسطينية قد تجاوزت سنّ الخطر، تجاوزت خطر التصفية. إن لحرب الجنوب دلالات كثيرة أهمّها اندلاع حرب الجوهر، فقد واجهت أكبر آلة حربية في الشرق الأوسط جسداً بشرياً لا ينكسر. كان الجنود "الإسرائيليون" المترعون بذكرات حرب الأيام الستة أو الساعات الست يترعدون من الفدائي. ولم يتمكّن هؤلاء الجنود المتفرغون لإبادة الفلسطينيين من تحقيق النصر. عرفوا أن الأضعف هو عدوهم الأقوى.

لقد تجاوزت الثورة الفلسطينية خطر التصفية على يد الصهيونية، لقد تخطت حالة الدفاع عن النفس. فهل يعيدها العجز العربي الناتج عن مسيرة التسوية الاستسلامية إلى هذه النقطة، إذا أصرّ العرب على المضي في التسوية الأمريكية التي تقتضي انتقال الصراع العربي-"الإسرائيلي" إلى مواجهة عربية-فلسطينية، للتغلب على العقبة الفلسطينية في فرض الانسجام المطلوب؟

إن لحرب الجنوب دلالات كثيرة منها: أن الانهيار العربي الرائج يمكن وقفه بتعزيز جبهة القتال التي تشكّل الضمان الوحيد لتحقيق السلام العربي. وأن إرادة الأعداء تتعرض للطحن حين تتاح للثوار والجماهير حرية الحركة والقتال. وأن حجّ الحاكم المصري إلى "الكنيست" لا يعني سقوط القارة العربية في الهزيمة، ولكن هذا الانهيار لا يوقفه تنقيح شروط التسوية الأمريكية، ولا التضامن العربي حول طبق الرئيس الأمريكي، بل يوقفه قتال القوى الثورية، الذي تشكّل حرب الجنوب أحد نماذجه الساطعة.

وذلك يقتضي انقلاب الذات العربية على ذاتها، فتعرف أن قتال الفدائي ليس خروجاً على القاعدة، ولكنه قتال الدفاع عن الأمة بأسرها عن نبضها وأرضها... ونفطها أيضاً. وهكذا تكون حرب الجنوب مثلاً لطريق الحرب والنصر، لا منعطفاً لسيطرة الظلام العربي على فاتحة الفجر